سُورَةُ الكَهْفِ

مكية وهي مائة وعشر آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴿١﴾ ﴾.

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ وفي وصفه تعالى بالموصول ﴿ الَّذِي أَنزَلَ ﴾ إيذان بعظم التنزيل الجليل، إذ عليه يدور فلك سعادة الدارين، وفي التعبير عن الرسول ﷺ با لعبد، تشريفٌ له وتكريم، لأنه أعلى مراتب الفخار ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴾ أي شيئاً من العِوَج، والعَوَجُ بفتحتين في الأجساد، خلاف الاعتدال، والعِوَجُ بالكسر في المعاني، والشخص يجب أن يكون كاملاً في ذاته، ثم يكون مكمّلاً لغيره. وفي قوله تعالى : ﴿وَلَم يَجعَل لَّهُ عِوَجَا﴾ إشارة إلى كمال في نفسه.

﴿ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ ﴾

﴿ قَيِّمًا ﴾ إشارة إلى الثاني لأن القيم عبارة عن القائم بمصالح الغير فالأرواح البشرية كالأطفال، والقرآن الكريم كالقيّم الشفيق، أي قيماً بالمصالح الدينية والدنيوية للعباد، على ما ينبىء عنه ما بعده من الإنذار

والتبشير، فيكون وصفاً له بالتكميل بعد وصفه بالكمال ﴿لِّيُنذِرَ﴾ أي لينذر الذين كفروا به ﴿بَأْسًا﴾ أي عذاباً ﴿شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي نازلاً من قِبَله تعالى، بمقابلة كفرهم ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي المصدِّقين ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التي بُيِّنت في تضاعيفه ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي بأن لهم بمقابلة إيمانهم وأعمالهم المذكورة ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الجنة وما فيها من النعيم الخالد.

﴿مَّٰكِثِينَ﴾ أي مقيمين على وجه الدوام ﴿فِيهِ﴾ أي في ذلك الأجر ﴿أَبَدًا﴾ من غير انتهاء، وتقديم الإنذار على التبشير، لإظهار كمال العناية بزجر الكفار عن ضلالهم.

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾﴾.

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ أي وينذر الفَجَرة الكفرة، المتفوّهين بمثل تلك الشناعات العظيمة وهم من كفار العرب، الذين يقولون: الملائكةُ بناتُ الله، واليهود القائلون: عزيرٌ ابنُ الله، والنصارى القائلون المسيحُ ابن الله.

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾.

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ﴾ أي باتخاذه سبحانه ولداً ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ أي ما لهم بذلك شيء من علم أصلاً ﴿وَلَا لِءَابَآئِهِمْ﴾ الذين قلَّدوهم فتاهوا جميعاً في تيه الضلالة، ما لهم علم بما قالوه، أهو صوابٌ أم خطأ، بل إنما قالوه عن عمى وجهالة، من غير فكر وروية كما في قوله تعالى: ﴿وخرقوا له بنين وبناتٍ بغير علم﴾ ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ أي عظمت مقالتهم هذه في الكفر والافتراء، لما فيها من نسبته سبحانه إلى ما لا يكاد يليق بجناب عظمته وكبريائه ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ صفة للكلمة مفيدة لاستعظام اجترائهم على

التفوه بها ﴿إِن يَقُولُونَ﴾ أي ما يقولون ﴿إِلَّا كَذِبًا﴾ أي إلا قولاً كذباً، لا يكاد يدخل تحت إمكان الصدق أصلاً.

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾.

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ﴾ أي مهلكٌ ﴿نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ غماً ووجداً ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟﴾ وعدم إيمانهم ﴿بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي القرآن ﴿أَسَفًا﴾ أي متأسفاً عليهم. شُبِّهت حالهُ ﷺ في شدة الحزن، على إعراض القوم عن الإيمان بالقرآن، وكمال التحسر عليهم، بحال من يتوقع منه هلاك النفس، إثر فوت ما يحبُّه عند مفارقة أحبته، تأسفا على مفارقتهم، فالغرضُ تسلية النبي ﷺ لتخفيف حزنه لعدم إيمان الكفار من أهل مكة.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي إنَّا جعلنا ما عليها من الزخارف، والرياش، والذهب، والفضة والنبات والمعدن ﴿زِينَةً لَّهَا﴾ ولأهلها أي ليتمتَّع بها الناظرون، وينتفعوا بها نظراً واستدلالاً، كما زينا السماء الدنيا بالكواكب، فكل ما على سطح الأرض من حيوان، ونبات، ومعدن هو زينة لها وابتلاء، كما أن الأموال والأولاد زينة أيضاً كما قال سبحانه: ﴿المَالُ والبَنُونَ زينةُ الحَيَاةِ الدُّنْيا﴾.

﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾ أي لنعاملهم معاملة من يختبرهم ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فنجازيهم بالثواب والعقاب حسب امتياز مراتبهم، علماً وعملاً، وحُسْنُ العمل: الزهدُ فيها، وعدم الاغترار بها، والقناعة باليسير منها، والتأمل في شأنها، وجعلها ذريعة إلى معرفة خالقها، والتمتع بها حسبما أذِنَ به الشرعُ، لا اتخاذها وسيلةً إلى الشهوات، والأغراض الفاسدة، كما يفعله الكفرة والفسقة.

﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾ .

﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ ﴾ فيما سيأتي عند تناهي عمر الدنيا ﴿ مَا عَلَيْهَا ﴾ قاطبة من المخلوقات، بإفنائها بالكلية ﴿ صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ أي تراباً لا نبات فيه، يقال: أرضٌ جُرُزٌ بضمتين أي يابسة لا نبات فيها أي سنحيلها إلى حطام ورُكام، بعد أن كانت بهجة وزينة، حتى تصبح كالأرض الجرداء التي لا نبات فيها ولا حياة.

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ ﴾ .

﴿ أَمْ حَسِبْتَ ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، والمراد به أمته وقريش، لأنهم تعجبوا من قصتهم وسألوا عنها الرسول ﷺ و «أَمْ» منقطعة، مقدَّرة بـ «بل» التي هي للانتقال من حديث إلى حديث، أي بل أحسبتَ؟ ﴿ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ ﴾ في عيشهم وحياتهم المدة الطويلة من الزمن ﴿ مِنْ ءَايَٰتِنَا ﴾ من بين آياتنا ﴿ عَجَبًا ﴾ أي آية ذات عجب، والمعنى إن قصتهم وإن كانت خارقة للعادة، ليست بعجب بالنسبة إلى سائر الآيات، فإن آياتنا كلها عجب، فإن من قدر على تخليق السماوات والأرض، ثم تزيين الأرض بأنواع المعادن، والحيوانات، والنباتات، ثم بجعلها صعيداً جُرُزاً، كيف يُستبعد عن قدرته، حفظُ فتية من الناس مدةً من الزمن في النوم؟ والكهفُ: الغارُ الواسع في الجبل، والرقيمُ: هو لوحُ رصاصٍ، أو حجر، رُقمت فيه أسماؤهم.

﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾ .

﴿ إِذْ أَوَى ﴾ أي اذكر حين التجأ ﴿ ٱلْفِتْيَةُ ﴾ أي أصحاب الكهف، أوثر

الإظهار لتحقيق ما كانوا عليه في أنفسهم من حال الفتوة، فإنهم كانوا فتية من أشراف الروم، أراد «دقيانوس» أن يجبرهم على الشرك، فهربوا منه فراراً بدينهم ﴿إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ بجبلهم واتخذوه مأوى ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ﴾ من خزائن رحمتك ﴿رَحْمَةً﴾ خاصة تستوجب المغفرة، والرزق، والأمن من الأعداء ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا﴾ الذي نحن عليه من مهاجرة الكفار، والمثابرة على طاعتك، وأصل التهيئة إحداثُ هيئة الشيء، أي أصلحْ ورتِّبْ وأتمم لنا من أمرنا ﴿رَشَدًا﴾ إصابة للطريق الموصل إلى المطلوب، والاهتداء إليه.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي ضربنا عليها حجاباً من النوم، يعني أنمناهم إنامةً ثقيلة، والضرب على الآذان كناية عن الإنامة الثقيلة ﴿فِى ٱلْكَهْفِ﴾ ظرف مكان لضربنا ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ أي ذات عدد ووصفُ السنين بذلك للتكثير، لإظهار كمال القدرة.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي أيقظناهم من تلك النَّومة الثقيلة، الشبيهة بالموت ﴿لِنَعْلَمَ﴾ أي بعثناهم ليحصل هذا العلم لبعض الخلق، أو هو مجاز عن الاختبار، فالمعنى: بعثناهم لنعاملهم معاملة من يختبرهم ﴿أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ أي الفريقين المختلفين منهم في مدة لبثهم، قال الفراء: (الحزبين) الطائفتين من المسلمين، في زمن أصحاب الكهف، وقال مجاهد: الحزبان من الفتية لقوله تعالى: ﴿قال قائل منهم كم لبثتم﴾ الآية ﴿أَحْصَىٰ﴾ أي أضبطُ ﴿لِمَا لَبِثُوٓا۟﴾ أي للبثهم ومكثهم ﴿أَمَدًا﴾ أي غاية ليتعرفوا حالهم وما صنع الله بهم، من حفظ أبدانهم فيزدادوا يقيناً بكمال قدرته وعلمه، والأَمَدُ: بمعنى المدى أي المدة من الزمن.

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ ﴾ شروع في تفصيل القصة، أي نحن نخبرك بتفاصيل أحوالهم ﴿ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ ﴾ أي بالصدق، ذكر محمد بن إسحق، أنه قد مرج أهل الإنجيل، وعظمت فيهم الخطايا، ملوكهم، فعبدوا الأصنام، وذبحوا للطواغيت، وكان ممن بالغ فيه «دقيانوس» فإنه غلا غلوّاً شديداً، وخالف من خالفه من المتمسكين بدين المسيح عليه السلام، فلما رأى الفتية ذلك وكانوا أبناء عظماء أهل مدينتهم، قاموا فتضرعوا إلى الله تعالى، واشتغلوا بالصلاة والدعاء، فبينما هم كذلك، إذ دخل عليهم أعوان الجبار فأحضروهم بين يديه، فقال لهم ما قال، وخيَّرهم بين القتل وبين عبادة الأوثان فقالوا: إن لنا إلٰهاً، لن ندعو من دونه أحداً، فأمر بنزع ما عليهم من الثياب الفاخرة، وخرج هو إلى «نينوى» لبعض شأنه، وأمهلهم ليتأملوا في أمرهم فإن تبعوه وإلا فعل ما فعل بسائر المسلمين، فأزمعت الفتية على الفرار بالدين، والالتجاء إلى الكهف الحصين، فأخذ كل منهم من بيت أبيه شيئاً وتزودوا فأووا إلى الكهف فجعلوا يصلُّون فيه آناء الليل وأطراف النهار، فضرب الله على آذانهم فناموا، فخرج دقيانوس في طلبهم بخيله ورجله، فوجدوهم قد دخلوا الكهف، فأمر بإخراجهم فلم يطق أحد أن يدخله، فلما ضاق بهم ذرعاً قال قائل منهم: ابنِ عليهم باب الكهف، ودعهم يموتوا جوعاً ففعل، ثم كان من شأنهم ما قصَّ الله عزَّ وجلَّ ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ ﴾ أي إنهم شباب مؤمنون، صادقون في إيمانهم، صامدون في وجه الطغيان ﴿ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ بأن ثبتناهم على ما هم عليه من الدِّين.

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي قويناها حتى اقتحموا مضايق الصبر على هجر الأهل، والأوطان، والنعم والإخوان، والرد على الجبار ﴿ إِذْ قَامُوا ﴾ بين يدي الجبار من غير مبالاة به، حين عاتبهم على ترك عبادة الأصنام ﴿ فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ضمَّنوا دعواهم ما يحقّق فحواها، ويقتضي بمقتضاها، فإن ربوبيته عزَّ وجلَّ تقتضي ربوبيته لما فيهما ﴿ لَن نَّدْعُوَا ﴾ لن نعبد أبداً ﴿ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ﴾ معبوداً آخر ﴿ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ أي قولاً خارجاً عن حد العقول، مفرطاً في الظلم، يقال: شطَّت الدارُ: بَعُدت، وشطَّ فلان في حكمه: جَارَ وظلم.

﴿ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا ﴾ في اسم الإشارة تحقير لهم ﴿ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ﴾ فيه معنى الإنكار، ودلالة على أن قومهم كانوا من عَبَدة الأصنام ﴿ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم ﴾ أي هلاَّ يأتون على ألوهية الأصنام ﴿ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾ بحجة ظاهرة الدلالة على مدَّعاهم، وهو تبكيتٌ لهم ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ بنسبة الشريك إليه أي أنه أظلم من كل ظالم.

﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ ﴾ أي وإذِ اعتزلتم أيها الفتية قومكم وفارقتموهم في الاعتقاد ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ أي اعتزلتموهم ومعبوديهم ﴿ فَأْوُوا ﴾ أي التجئوا ﴿ إِلَى الْكَهْفِ ﴾ واجعلوا الكهف مأواكم ﴿ يَنشُرْ لَكُمْ ﴾ أي يبسط لكم، ويوسِّع عليكم ﴿ رَبُّكُم ﴾ مالك أمركم ﴿ مِّن رَّحْمَتِهِ ﴾ في الدارين ﴿ وَيُهَيِّئْ لَكُم ﴾ يُسهِّل لكم ﴿ مِّنْ أَمْرِكُم ﴾ الذي أنتم بصدده من الفرار بالدين

﴿مِّرْفَقًا﴾ ما ترتفقون وتنتفعون به، إنما قالوا ذلك ثقة بفضل الله، ولقوة رجائهم، لتوكلهم عليه تعالى.

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ﴾ بيان لحالهم بعدما أوَوا إلى الكهف، والخطاب للرسول ﷺ أو لمن يصلح للخطاب ﴿إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ﴾ تتزاور وتتنحَّى، من الزَّور وهو الميلُ ﴿عَن كَهْفِهِمْ﴾ أي تميل عنه، ولا يقع شعاعها عليهم، والمقصودُ بيانُ أنه تعالى صانَ أصحاب الكهف، من أن يقع عليهم ضوء الشمس، لئلا تفسد أجسامهم ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ أي جهة يمين الكهف، عند توجه الداخل إلى داخله ﴿وَإِذَا غَرَبَت﴾ أي تراها عند غروبها ﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾ أي تقطعهم ولا تقربهم ﴿ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي جهة شمال الكهف، أي الجانب الذي يلي المشرق، وكان ذلك بتصريف الله تعالى، على منهاج خرق العادة كرامةً لهم ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ جمله حالية مبينة لكون ذلك أمراً بديعاً أي تراها تميل يميناً وشمالاً، ولا تحوم حولهم مع أنهم في متَّسع من الكهف، معرَّض لإصابتها، لولا أن صرفتها عنهم يد القدرة ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ما صنع الله بهم ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ العجيبة، الدالة على كمال علمه وقدرته ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ أي من يهده الله إلى الحق، فهو المهتدي الذي أصاب الفلاح، والمراد التنبيه على أن أمثال هذه الآيات كثيرة، ولكنَّ المنتفع بها من وفَّقه الله تعالى للاستبصار بها ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ يخلق فيه الضلال، لصرف اختياره إليه ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ﴾ أبداً وإن بالغت في النظر ﴿وَلِيًّا﴾ أي ناصراً ﴿مُّرْشِدًا﴾ يهديه إلى ما ذكر من الفلاح، لاستحالة وجوده في نفسه.

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ ﴾ أي تظنهم أيها الناظر ﴿ أَيْقَاظًا ﴾ جمع يَقِظ، وهو اليقظان الذي لم ينم، لانفتاح عيونهم على هيئة الناظر ﴿ وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ أي نيام، مستغرقون في نومهم ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ﴾ في رقدتهم ﴿ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ ﴾ أي جهة تلي أيمانهم ﴿ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾ أي جهة تلي شمائلهم، كيلا تأكل الأرض ما يليها من أبدانهم ﴿ وَكَلْبُهُم ﴾ هو كلب راع قد تبعهم ﴿ بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ﴾ أي بموضع الباب من الكهف ﴿ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي لو عاينتهم، وأصل الاطلاع، الإشراف على الشيء بالمعاينة والمشاهدة ﴿ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا ﴾ هرباً مما شاهدت منهم ﴿ وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ أي خوفاً يملأ الصدر ويرعبه من الهيئة، وقيل إن الله تعالى منعهم بالرعب لئلا يراهم أحد، قال ابن عباس: غزونا مع معاوية نحو الروم، فمررنا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف، فقال معاوية: لو كشف الله لنا عن هؤلاء لنظرنا!! فقال ابن عباس: قد مُنع عن ذلك من هو خيرٌ منك يعني رسول الله ﷺ.

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ ﴾ أي كما أنمناهم وحفظنا أجسادهم من البِلَى، آية دالة على كمال قدرتنا، بعثناهم من النوم ﴿ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ ﴾ أي ليسأل بعضهم بعضاً، ويعرفوا حالهم، وما صنع الله بهم، فيزدادوا يقيناً، على كمال قدرة الله تعالى ويستبصروا به أمر البعث، ويشكروا ما أنعم الله به عليهم

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ هو رئيسهم ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾؟ في منامكم في هذا الكهف؟ ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ بناءً على غالب ظنهم، لأن النائم لا يُحصَىٰ مدة لبثه، ولذلك أحالوا العلم إلى الله تعالى ﴿قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ أي أنتم لا تعلمون مدة لبثكم، وإنما يعلمها الله تعالى، وهذا رد منهم بأجمل ما يكون، من مراعاة حسن الأدب ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم﴾ قالوه إعراضاً عن التعمق في البحث، وإقبالاً على ما يهمهم حيث شعروا بالجوع الشديد ﴿بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ﴾ الوَرِقُ: الفضة مضروبة أو غير مضروبة، أي أرسلوا واحداً منكم إلى المدينة بهذه النقود الفضية ليشتري بها قوتاً لنا، وفيه دليل على أن التزود لا ينافي التوكل ﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ قيل: المدينة «طرسوس» واسمها قبل الإسلام أفسوس ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أي أحلَّ وأطيب، وأرخص وأجود ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ أي من ذلك الطعام ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ وليتكلف اللطف في المعاملة وفي الاستخفاء لئلا يعرف ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ﴾ أي لا يعلمن ﴿بِكُمْ أَحَدًا﴾ من أهل المدينة، فإنه يستدعي الشعور بنا، والقبض علينا

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي ليبالغ في عدم الإشعار لأنهم ﴿إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾ أي إن يظفروا بكم ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ أي يقتلوكم إن ثبتم على ما أنتم عليه ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ أي يُدخلوكم فيها كُرْهاً ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا﴾ أي إن دخلتم فيها ولو بالكره، لن تفوزوا بخير ﴿أَبَدًا﴾ لا في الدنيا، ولا في الآخرة.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي كما أنمناهم وبعثناهم ليزداد يقينهم ﴿أَعْثَرْنَا﴾ أي

أطلعنا الناس ﴿عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ﴾ بما عاينوا من أحوالهم ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث بعد الموت ﴿حَقٌّ﴾ صادق لا مردَّ له، لأن نومهم وانتباههم، كحال من يموت ثم يبعث ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ لا شكَّ في قيام القيامة، فإن من شاهد أنه جلَّ وعلا توفَّى نفوسهم، وأمسكها ثلاثمائة سنة وأكثر، حافظاً أبدانها من التحلل والتفتت، لا يبقى له شائبة شك، في أن وعده حق، وأنه يبعث من في القبور﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ﴾ ظرف لقوله ﴿أعثرنا﴾ قُدِّم عليه ذكر الساعة لكمال العناية بذكرها، أي أطلعناهم عليهم حين يتنازعون ﴿بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ ليرتفع الخلافُ، ويتبيَّنَ الحقُّ، في أمر البعث فمن مقرٍ به، وجاحد له، روي أن المبعوث لمَّا دخل المدينة، أخرج الدرهم ليشتري به الطعام، فاتهموه بأنه وجد كنزاً، فذهبوا به إلى الملك، فقصَّ عليه القصة فقال بعضهم: إنّ آباءنا أخبرونا بأن فتيةً فروا بدينهم من دقيانوس، فلعلهم هؤلاء، فانطلق الملك وأهل المدينة، ولما انتهوا إلى الكهف قال لهم الفتى: مكانكم حتى أدخل أولاً، لئلا يفزعوا، فدخل فغُمِّي عليهم المدخلُ، فبنوا ثمة مسجداً ﴿فَقَالُواْ﴾ الفاء فصيحة، أي أعثرنا عليهم فرأوا ما رأوا فماتوا، فقالوا أي قال بعض الناس ﴿ٱبْنُواْ عَلَيْهِم﴾ أي على باب الكهف ﴿بُنْيَٰنًا﴾ لئلا يتطرق إليهم الناس ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ من كلام المتنازعين، كأنهم لما رأوا عدم اهتدائهم إلى حقيقة حالهم، من حيث النسبُ، ومن حيث العدد، ومن حيث اللبثُ في الكهف، قالوا ذلك، تفويضاً للأمر إلى علام الغيوب، أي الله أعلم بحالهم وشأنهم ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾ وهم الملك والمسلمون ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ يصلي فيه المسلمون.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۬ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾.

﴿ سَيَقُولُونَ ﴾ الضميرُ في الأفعال الثلاثة للخائضين، أي سيقول هؤلاء القوم، الخائضون في قصتهم ﴿ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ أي هم ثلاثة أشخاص، ويصبحون أربعةً بانضمام الكلب إليهم ﴿ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ أي ويقول البعض: إنهم خمسة سادسهم الكلب ﴿ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ﴾ أي رمياً بالخبر الخفي الذي لا مطلع عليه، وبالظن من غير يقين ﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ أي ويقول البعض إنهم سبعة أشخاص، والثامن هو كلبهم الذي صحبهم للحراسة ولعل هذا القول هو الأقرب للصواب، لأن ما فيه يرشد إلى ذلك، من عدم نظمه في سلك الرجم بالغيب، ﴿ قُل ﴾ تحقيقا للحق ورداً على الأولين ﴿ رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ أي أعلم بعددهم ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ أي لا يعلم على وجه الضبط إلا عدد من الناس، قد وفقهم الله تعالى، قال ابنُ عباس: حين وقعت الواو[1] انقطعت العِدَّةُ، وعليه مدار قوله رضي الله عنه: أَنَا من ذلك القليل[2] ﴿ فَلَا تُمَارِ ﴾ أي إذا عرفت ذلك فلا تجادلهم يعني أهل الكتاب في شأن الفتية ﴿ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا ﴾ أي إلاَّ قدر ما تعرَّض له الوحي، وهو أن تقص عليهم ما في القرآن، من غير التجهيل لهم، والردِّ عليهم ﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم ﴾ أي في شأنهم ﴿ مِّنْهُمْ ﴾ أي من الخائضين ﴿ أَحَدًا ﴾ فإن فيما قصَّ الله عليك لمندوحة عن ذلك، وما ذكر من الشواهد لإرشاد المؤمنين إلى صحة القول الثالث، والمعنى حينئذ: وإن وقفت على أن كلهم ليسوا

---

(١) الواو زائدة، وقيل: مستأنفة، قال الزمخشري: «هي الواوُ التي تدخل على الجملة التي وقعت صفةً للنكرة»، تقول: جاءني رجلٌ ومعه آخر.

(٢) يريد ابن عباس رضي الله عنه أن عددهم كان سبعة، وقد عرفهم بالفهم الثاقب قال: كانوا سبعة فإن الله عدّهم حتى انتهى إلى السبعة، ولما ذكر القول الأول والثاني، أردفه بقوله: ﴿رجماً بالغيب﴾ ولما ذكر القول الأخير لم يقدح فيه بشيء، فكأنه أقرَّ قائله، ثم وجود الواو ﴿وثامنهم كلبهم﴾ يدل عليه ولم تذكر الواو في القولين السابقين فتنبه رعاك الله.

على خطأ في ذلك، فلا تجادلهم إلا جدالاً ظاهراً. واختلف الناس في زمان أصحاب الكهف، وفي مكانهم، فقيل: إنهم كانوا قبل موسى عليه السلام، وقيل إنهم دخلوا الكهف قبل المسيح، ثم بعثوا بين عيسى وبين الرسول ﷺ، وقيل: دخلوا الكهف بعد المسيح، أمَّا مكان هذا الكهف، ففيه روايات.

أقولُ: العلمُ بذلك الزمان، وبذلك المكان، ليس للعقل فيه مجال، وإنما يستفاد ذلك من نصّ في الكتاب أو السنة، وذلك مفقود، فلا سبيل إليه، فنكتفي بما ورد في القرآن، من خبر هؤلاء الفتية المؤمنين.

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ ﴾ الشيء ﴿ غَدًا ﴾ أي فيما يُستقبل، فيدخل الغَدُ دخولاً أولياً، فإنه نزل حين قالت اليهود لقريش: «سَلوه عن الروح، وعن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، فسألوه فقال ﷺ: ائتوني غداً أُخبركم، ولم يستثن، فأبطأ عليه الوحي، حتى شقَّ عليه، وكذبته قريش» هكذا قال المفسرون.

وقيل: من البعيد أن يَعِد رسولُ الله ﷺ ولم يقل فيه إن شاء الله، بل هذا تهييج وتنبيهٌ للمسلمين.

﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ۖ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ ﴾ استثناء مفرغ من النهي أي لا تقولن في حال من الأحوال إلا حالة ملابسته بمشيئة الله تعالى، على الوجه المعتاد، وهو أن يقال: إن شاء الله ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ ﴾ بقولك إن شاء الله متداركاً له ﴿ إِذَا نَسِيتَ ﴾ أي إذا فرط منك نسيانٌ ثم ذكرته، ولو بعد مدة من الزمان. قال

القرطبي: «وهذا في تدارك التبرك، والتخلص من الإثم، وأما الاستثناء المغيِّر للحكم، فلا يكون إلا متصلاً، ويجوز أن يكون المعنى: واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيتَ مبالغةً في الحث عليه، أو اذكره إذا اعتراك النسيان ليذكر المنسيّ ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ﴾ أي يوفقني ﴿رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا﴾ أي لشيء أقرب وأظهر من نبأ أصحاب الكهف، من الآيات والدلائل الدالة على نبوتي ﴿رَشَدًا﴾ أي إرشاداً للناس، حيث آتاه من البيّنات ما هو أعظم من ذلك وأبين.

﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ﴾ أحياء نياماً مضروباً على آذانهم ﴿ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ وهو بيان لما أُجمل في قوله في الكهف سنين عدداً، أي بقوا ماكثين في الكهف نياماً، ثلاثمائة وتسع سنين، حتى بعثهم الله من النوم، وأطلع الناسَ عليهم، ليتيقَّنوا قدرة الله على البعث[1].

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾.

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ يعني إن نازعوك في مدة لبثهم، فقل أنت: الله أعلم بما لبثوا؟ وقد أخبر بمدة لبثهم وهي ثلاثمائة وتسع سنين ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ما غاب فيهما وخفي من أحوال أهلهما ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ معناه ما أبصره بكل موجود، وما أسمعه؟ دلَّ بصيغة التعجب، على أن شأن علمه سبحانه، خارج عمَّا عليه إدراك البشر، لا يحجبه شيء ولا يتفاوت بالنسبة إليه اللطيف والكثيف، والخفيُّ والجليُّ

(١) انظر أسباب النزول للواحدي، ومختصر تفسير ابن كثير ٢/٤٠٨ فقد ذكرت فيه الرواية مطوَّلة.

﴿ مَا لَهُم ﴾ أي لأهل السماوات والأرض ﴿ مِّن دُونِهِۦ ﴾ تعالى ﴿ مِن وَلِيٍّ ﴾ يتولى أمورهم وينصرهم ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ ﴾ في قضائه أو في علم الغيب ﴿ أَحَدًا ﴾ منهم، ولا يجعل له فيه مدخلاً.

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ ﴾ أي من القرآن الكريم وقوله: ﴿ ٱتْلُ ﴾ يتناول القراءة ويتناول الاتباع، فالمعنى: الزمْ قراءة الكتاب، والزم العمل به ﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ أي لا قادر على تبديله ﴿ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ ﴾ أبدَ الدهر ﴿ مُلْتَحَدًا ﴾ أي ملجأً تعدل إليه، عند إلمام مُلمّة أو في البيان والرشاد.

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ ﴾ أي احبْسها وثبتها مصاحبة ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ دائبين على الدعاء في جميع الأوقات وفي طرفَي النهار ﴿ بِٱلْغَدَوٰةِ ﴾ أي بالصباح لطلب التوفيق والتيسير ﴿ وَٱلْعَشِيِّ ﴾ أي المساء لطلب عفو التقصير، والمراد بهم فقراء المؤمنين، مثل صهيب، وعمار، ونحوهما وقيل: أصحاب الصُفَّة، وكانوا سبع مائة رجل في مسجد رسول الله ﷺ، لا يرجعون إلى تجارة، ولا إلى زرع، ولا ضَرْع، يصلُّون صلاةً وينتظرون أخرى، فلما نزلت الآية قال النبي ﷺ: «الحمدُ لله الذي جعل من أمتي، مَنْ أُمِرْتُ أن أصبِّر نفسي معهم»[1] وروي أن قوماً من رؤساء الكفرة قالوا

(١) أخرجه الطبراني، وذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ٢/٤١٦.

لرسول الله ﷺ: نحِّ هؤلاء الموالي، الذين ريحُهم ريحُ الضأن، حتى نجالسك، كما قال قوم نوح عليه السلام: ﴿وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾ فنزلت الآية ﴿يُرِيدُونَ﴾ بدعائهم ذلك ﴿وَجْهَهُ﴾ أي مريدين رضاه تعالى وطاعته ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي لا يجاوزهم نظرك إلى غيرهم، والمراد نهيه ﷺ عن الازدراء بهم لرثاثة زيهم، طموحاً إلى زيِّ الأغنياء﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ أي تطلب مجالسة الأشراف والأغنياء وصحبة أهل الدنيا ﴿وَلَا تُطِعْ﴾ في تنحية الفقراء عن مجالسك ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ أي جعلناه غافلاً لبطلان استعداده للذكر ﴿عَن ذِكْرِنَا﴾ أي عن عبادة الله وذكره على خلاف ما عليه المؤمنون، من الدعاء في جميع الأوقات، وفيه تنبيه على أن الداعي له إلى هذا الطلب، غفلةُ قلبه عن المعنويات، وانهماكه في المحسوسات، حتى خفي عليه أن الشرف بحلية النفس، لا بزينة الجسد ﴿وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ أي ضياعاً وهلاكاً ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغَدَاةِ والعَشِيِّ﴾[1] ففي تلك نهيٌ عن طردهم، وفي هذه أمرٌ بمجالستهم.

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي إن ما أُوحي إليَّ حقٌّ لا ريب فيه، وإن ذلك الحق من جهة ربكم ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ أي فمن شاء أن يؤمن به فليؤمن، ومن شاء أن يكفر به فليفعل، حيث جاء الحقُّ، وزاحت العلل، فلم يبق إلاّ اختياركم لأنفسكم ما شئتم، وفيه من التهديد، وعدم المبالاة بهم، وبإيمانهم وجوداً وعدماً ما لا يخفى.

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٥٢.

ثم ذكر جزاء من اختار الكفر فقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾ أي هيَّأنا ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ للكافرين بالحق، والتعبيرُ عنهم بالظالمين للتنبيه على أن اختيار الكفر، تجاوزٌ عن الحد، ووضعٌ للشيء في غير موضعه ﴿نَارًا﴾ عظيمة عجيبة ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أي حائطها وسورها، شُبه به ما يحيط بهم من النار بالسور، والسرادقُ هو ما يدار حول الخيمة وقيل دخانها ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا﴾ من العطش ﴿يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ كالحديد والنحاس المذاب أو كعكر الزيت المحمي ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ إذا قُدِّم ليشرب من فرط حرارته ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي بئس ذلك الشراب الذي يغاثون به، وساءت جهنم منزلاً ومأوى يرتفق به أهل الجحيم!! وقوله تعالى: ﴿مُرتَفَقاً﴾ أي موضعاً للاستراحة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بيان من اختار الإيمان كأنه قيل: والذين آمنوا بالحق الذي أوحي إليك ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ أي لا نترك أعمالهم تذهب ضياعاً، بل نجزيهم عليها أفضل الجزاء.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنعوتون ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾ التنكير للتفخيم جمع أسورة، وهي جمع سوار ﴿مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾ خصت الخضرة بثيابهم، لأنها أحسن الألوان، وأكثرها طراوة ﴿مِّن سُندُسٍ﴾ هو الديباج الرقيق، وقيل: المنسوجُ بالذهب ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ هو

الديباج الصفيق الغليظ، جمع بين النوعين، للدلالة على أن فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ جمع أريكة وهي السرر في الحجال، ولا يقال للسرير وحده أريكة، وخصَّ الاتكاء لأنه هيئة المتنعّمين ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾ ذلك ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي الأرائك متكأً لهؤلاء المتنعمين.

﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾﴾.

﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم﴾ أي للفريقين المؤمن، والكافر ﴿مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ لا من حيث أحوالهما في الآخرة، بل من حيث عصيانُ الكافر، وطاعةُ المؤمن، مع تقلب الأول في نعم الله تعالى، ومكابدة الأخير للفقر والضرورة، مثلاً حال رجلين مقدَّرَيْن أو محققَيْن، قيل: هما أخوان من بني إسرائيل، اقتسما ثمانية آلاف دينار، فاشترى الكافر بنصيبه ضياعاً، وعقاراً، وصرف المؤمن نصيبه في وجوه الخير والإحسان، فآل حالهما إلى ما حكاه الله تعالى ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ أي بستانين ﴿مِنْ أَعْنَـٰبٍ﴾ من كروم متنوعة ﴿وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ﴾ أي جعلنا النخل محيطةً بهما ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا﴾ وسطهما ﴿زَرْعًا﴾ ليكون كل واحد منهما جامعاً للأقوات، والفواكه، على الهيئة الرائقة، التي تسرُّ الناظرين.

﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾.

﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ ثمرها، وبلغت مبلغاً صالحاً للأكل ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ﴾ أي ولم تنقص من أكلها ﴿شَيْـًٔا﴾ كما يُعهد في سائر البساتين، فإن الثمار غالباً تكثر في عام، وتقلُّ في آخر، وكذا بعض الأشجار يأتي بالثمر في بعض الأعوام دون بعض ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا﴾ فيما بين الجنتين ﴿نَهَرًا﴾ على حِدَةٍ، ليكتمل شربهما، ويزيد بهاؤهما.

﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ .

﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ ﴾ لصاحب الجنتين ثمر أي أنواع مالٍ سوى الجنتين من ثمر ماله، قال ابن عباس رضي الله عنه: الثمر هو جميع المال، وقال مجاهد الذهب والفضة[1] ﴿ فَقَالَ ﴾ الكافر ﴿ لِصَٰحِبِهِۦ ﴾ المؤمن ﴿ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ ﴾ أي يراجعه في الكلام، من حَار إذا رجع ﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ أي أعواناً وأولاداً ذكوراً.

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ ﴾ .

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ ﴾ التي شرحت أحوالها بصاحبه، يطوف به ويفاخر بها ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ ضارٌّ لها بكفره وظلمه ﴿ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ ﴾ أي تفنى ﴿ هَٰذِهِۦٓ ﴾ أي الجنة ﴿ أَبَدًا ﴾ لطول أمله، وتمادي غفلته، واغتراره بمهلته، ولعله إنما قاله بمقابلة موعظة صاحبه وتذكيره، وترى أكثر الأغنياء تنطق ألسنة أحوالهم بذلك، وإن لم يتلفَّظوا بذلك.

﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾ .

﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ أي وما أعتقد أن القيامة كائنة فيما سيأتي ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ ﴾ بالبعث كما تقول ﴿ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ ﴾ يومئذٍ ﴿ خَيْرًا مِّنْهَا ﴾ من

---

(١) الثَّمرُ جمع ثَمَرة وهي المجنيُّ من الفاكهة، وإنما ذكر الثَّمر وإن كانت الجنة لا تخلو منه، للإيذان بكثرة الحاصل في الجنتين، قال ابن كثير ٢/ ٣٨٤: قيل المراد بالثَّمرِ المالُ، وقيل: الثِّمارُ، وهو أظهر ههنا. ا هـ.

هذه الجنة ﴿مُنقَلَبًا﴾ أي مرجعاً وعاقبة، ومدار هذا الطمع، اعتقاد أنه إنما أكرمه الله في الدنيا لاستحقاقه الذاتي، ولم يدْرِ أنه استدراج.

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾.

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾؟ أي قال له صاحبه المؤمن وهو يراجعه ويُكلِّمه، ويناقشه الحديث: ﴿أَكَفَرْتَ﴾ حيث قلتَ: ما أظن الساعة قائمة، وهذا يدلُّ على أن الشاكَّ في حصول البعث كافر، ثم قال: ﴿بِٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾ أي في ضمن خلق أصلك آدم عليه السلام ﴿مِن تُرَابٍ﴾ فإن خلق آدم عليه السلام منه، متضمنٌ لخلق الإنسان منه ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ هي مادتك القريبة، فالمخلوقُ واحدٌ، والمبدأ متعدد ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ أي عدَّلك وكمَّلك إنساناً ذكراً!! جعل كفره بالبعث كفراً بالله تعالى، لأن منشأه الشك في كمال قدرته تعالى، ولذا رتَّب الإنكار على خلقه إياه من التراب.

﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾.

﴿لَّٰكِنَّا۠﴾ أصله «لكنْ أَنَا» فحذفت الهمزةُ، فتلاقت النونان فأُدغمتا ﴿هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ هو ضمير الشأن، وهو استدراك لقوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتَ﴾ كأنه قال: أنت كافر ولكني مؤمن، وفيه حذف، أي أقول: هو الله ربي ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ وفيه إيذان بأن كفره بطريق الإشراك.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ﴾ أي هلاَّ قُلت عندما دخلتها ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي ما شاء الله كائن، والمراد تحضيضه على الاعتراف بأنها وما فيها

بمشيئة الله تعالى، إن شاء أبقاها وإن شاء أفناها ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي هلاَّ قلت ذلك اعترافاً بعجزك، وبأن ما تيسر لك من عمارتها وتدبير أمرها، إنما هو بمعونة الله تعالى ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ ولأجل ذلك تكبَّرتَ عليَّ وتعظَّمتَ.

﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ هو جواب الشرط، والمعنى: إن ترني أفقر منك، فأنا أتوقع من صنع الله تعالى، أن يقلب مابي وما بك، فيرزقني لإيماني، ويسلبك نعمته لكفرك ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ أي على جنتك ﴿حُسْبَانًا﴾ أي عذاباً ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أي أرضاً ملساء يزلق عليها القَدَم.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ أي غائراً في الأرض، أطلق المصدر عليه مبالغة ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ﴾ أبداً ﴿لَهُۥ﴾ للماء الغائر ﴿طَلَبًا﴾ أي لا تستطيع طلبه فضلاً عن وجدانه وردّه.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ أي أُهلكت أمواله المعهودة، وأصله من إحاطة العدوّ، ثم استعير في كل الإهلاك ﴿فَأَصْبَحَ﴾ الكافر ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ ظهراً لبطنٍ، وهو كناية عن الندم به، ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ والجنة

مهشَّمة محطمة، قد سقطت سقوفها على جدرانها، فأصبحت خراباً يباباً ﴿وَيَقُولُ﴾ أي ويقول الكافر نادماً على صنيعه ﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾ كأنه تذكَّر موعظة صاحبه، وعلم أنه أُتي من قِبَل شركه.

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ﴾ جماعة ﴿يَنصُرُونَهُۥ﴾ يقدرون على نصره بدفع الإهلاك ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فإنه القادر على ذلك وحده ﴿وَمَا كَانَ﴾ في نفسه ﴿مُنتَصِرًا﴾ ممتنعاً بقوته عن انتقام الله تعالى، فإن قيل: فقد ندم على الشرك ورغب في التوحيد، فلمَ قيل: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِراً﴾؟ الجواب: إنما رغب في التوحيد، لأجل حفظ ماله، ولطلب الدنيا، فلهذا ما صار توحيده مقبولاً عند الله تعالى.

﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾.

﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المقام وللوقت الذي يريد الله إظهار كرامة أوليائه، وإذلال أعدائه ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ أي النصرة له وحده، لا يقدر عليها أحد سواه جلَّ وعلا ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي الله خير ثواباً لأوليائه، وخير عاقبة لمن آمن به واعتمد عليه.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في زهرتها، وسرعة زوالها لئلا يطمئنُّوا بها، ولا يعكفوا عليها، أي بيِّنْ لهم صفتَها العجيبة، التي هي في الغرابة كالمثل ﴿كَمَآءٍ﴾ أي هي كماء ﴿أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ﴾ أي اشتبك بسببه ﴿نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ فالتف وخالط بعضُه بعضاً، من كثرته، وتكاثفه

﴿فَأَصْبَحَ﴾ ذلك النبات الملتف إثر بهجتها ورفيفها ﴿هَشِيمًا﴾ مهشوماً مكسوراً ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ أي تفرّقه وتطيّره، وليس المشبه به نفس الماء، بل هو الهيئة المنتزعة من الجملة، وهي حالة النبات المنبت بالماء، يكون أخضر وارفاً، ثم هشيماً تطيّره الريح، كأن لم يغن بالأمس ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء التي من جملتها الإنشاء والإفناء ﴿مُّقْتَدِرًا﴾ قادراً على كل شيء، بتكوينه وتنميته وإبطاله، وهكذا الدنيا بهاءٌ ثم فناء.

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾.

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ﴾ بيان لشأن ما كانوا يفتخرون به من الدنيا، وتقديم المال على البنين، مع كونهم أعزَّ منه، لعراقته فيما نيط به من الزينة، والإمداد وغير ذلك، والمعنى: إنَّ ما يفتخرون به من المال والبنين شيء يتزين به في الحياة الدنيا، وقد عُلم شأنها في سُرعة الزوال ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ أي أعمال الخير، التي تبقى ثمراتها للإنسان بعد موته من صلاة وصيام، وزكاة وحج، وسائر أعمال الخير، وقيل: «هي سبحان الله، والحمدُ لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»[1] ﴿خَيْرٌ﴾ من المال، والبنين ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ أي في الآخرة، وهو بيان لما تظهر فيه آثار خيريتها ﴿ثَوَابًا﴾ عائدةً تعود إلى صاحبها ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ حيث ينال بها صاحبها في الآخرة، كلَّ ما يؤمّله في الدنيا.

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾.

---

(١) ورد هذا في حديث أخرجه النسائي والحاكم بلفظ «خذوا جُنَّتكم ـ أي وقايتكم ـ من النار، قولوا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر».

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ ﴾ أي اذكر حين نقلعها من أماكنها، ونسيِّرها في الجو على هيئتها، أو نسيِّرها أجزاء بعد أن نجعلها هباءً منبثاً والمراد بتذكره تحذير المشركين مما أمامهم من الدواهي ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ ﴾ أي جميع جوانبها والخطاب للرسول ﷺ أو لكل أحد ممن يأتي منه الرؤية ﴿ بَارِزَةً ﴾ أمَّا بروز ما تحت الجبال فظاهر، وأما ما عداه فكانت الجبال تحول بينه وبين الناظر، قبل ذلك، فالآن أضحى قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴿ وَحَشَرْنَٰهُمْ ﴾ أي جمعناهم إلى الموقف من كل أوب، وإيثار صيغة الماضي للدلالة على تحقق الحشر، المتفرع على البعث، الذي ينكره المنكرون، وعليه يدور أمر الجزاء ﴿ فَلَمْ نُغَادِرْ ﴾ أي لم نترك ﴿ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ يقال غادره إذا تركه، ومنه الغدر لترك الوفاء.

﴿ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ ﴾ شبهت حالهم بحال جُندٍ عُرضوا على السلطان، لا ليعرفهم، بل ليأمر فيهم بما يأمر ﴿ صَفًّا ﴾ مصطفين لا يحجب أحدٌ أحداً والمراد بقوله: ﴿ صَفًّا ﴾ أي صفوفاً كقوله تعالى: ﴿ثم يخرجكم طفلاً﴾ أي أطفالاً، أي غير مختلطين ولا متفرقين ولا تعرض فيه لوحدة الصف وتعدده، ثم يقال لهم ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ﴾ حفاة، عراة، غُرْلاً أو ما معكم شيء مما تفتخرون به من الأموال والأنصار، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾[1] ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ إضرابٌ وانتقال من كلام إلى كلام كلاهما للتوبيخ، أي زعمتم في الدنيا أنه لن نجعل لكم أبداً وقتاً ننجز فيه ما وعدناه من البعث!! عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت

(١) سورة الأنعام، آية: ٩٤.

رسول الله ﷺ يقول: «يُحشر الناسُ حُفاةً، عُراةً، غُرْلاً، فقلتُ يا رسول الله: الرجالُ والنساءُ جميعاً؟ ينظر بعضُهم إلى بعض؟ قال: الأمر أشدُّ من أن يُهمَّهم ذلك»[1].

وفي رواية النسائي: ﴿لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ أي وضعت صحائف الأعمال، والمرادُ بوضعها وضعُها بأيدي أصحابها، أو في الميزان ﴿ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ قاطبة فيدخل الكفرة فيهم دخولاً أولياً ﴿ مُشْفِقِينَ ﴾ أي خائفين ﴿ مِمَّا فِيهِ ﴾ من الجرائم والذنوب ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ عند وقوفهم على ما في الكتاب ﴿ يَٰوَيْلَتَنَا ﴾ منادين لهلكتهم التي أُهلكوها، مستدعين لها ليهلكوا أي يا حسرتنا وهلاكنا ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي أيُّ شيءٍ له ﴿ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ أي حواها وضبطها ﴿ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ ﴾ في الدنيا ﴿ حَاضِرًا ﴾ مسطوراً عتيداً ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ فيكتب ما لم يعمل من السيئات، أو يزيد في عقابه المستحق.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾.

(١) الحديث أخرجه البخاري ١١/٣٧٨ في الرقاق، ومسلم رقم ٢٨٠٦ في المنافقين.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ ﴾ كلام مستأنف سيق مساق التعليل كأنه قيل ما له لم يسجد؟ فقيل: كان أصله جنيّاً ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ أي خرج عما أمره ربُّه به من السجود، وهو دليل على أنه كان مأموراً بالسجود مع الملائكة، والتعرض لوصف الربوبية لبيان قبح ما فعله، والمراد بتذكير قصته ههنا النكير على المتكبرين، المفتخرين بأنسابهم وأموالهم، المستنكفين عن الانتظام في سلك فقراء المؤمنين، ببيان أن ذلك من صنيع إبليس ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ ﴾ أي أعقيب علمكم بصدور تلك القبائح منه تتخذونه ﴿ وَذُرِّيَّتَهُۥ ﴾ أي أولاده وأتباعه، **قال قتادة**: يتوالدون كما يتوالد بنو آدم، عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة..»[1] الحديث ﴿ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى ﴾ أي تستبدلونهم بي فتطيعونهم بدل طاعتي؟ ﴿ وَهُمْ ﴾ والحال أنَّ إبليس وذريته ﴿ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ﴾ أي أعداء ﴿ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ أي بئست عبادة الشيطان بدلاً عن عبادة الرحمن، وفي الالتفات إلى الغَيْبة، مع وضع «الظالمين» موضع الضمير، الإيذان بسخط الله العظيم.

﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ ﴾ أي ما أحضرت إبليسَ وذريته ﴿ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ حين خلقتهما قبل خلقهم ﴿ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي ولا أشهدتُ

---

(١) الحديث رواه مسلم رقم ٢٨١٣ في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، وتتمة الحديث «يجيء أحدُهم فيقول: فعلتُ كذا وكذا، فيقول: ما صنعتَ شيئاً، ثم يجيء أحدُهم فيقول: ما تركتُه حتى فرَّقتُ بينه وبين امرأته، قال: فيُدنيه مِنه ويقول: نعمَ أنت».

بعضهم خلق بعض، كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ﴾ أي متخذهم، وإنما وضع المظهر ذماً لهم ﴿عَضُدًا﴾ أي أعواناً في شأن الخلق، أو في شأنٍ في شؤوني حتى يتوهم شركتهم معي، وفيه تهكمٌ بهم، وإيذان بركاكة عقولهم، حتى لا يفهموا هذا الأمر الجلي، الذي لا يكاد يشتبه على البُله والصبيان، وقيل: الضمير للمشركين، والمعنى: ما أطلعتهم على أسرار التكوين، وما خصصتهم بفضائل لا يحويها غيرهم، حتى يكونوا قدوة للناس، فيؤمنوا بإيمانهم كما يزعمون، فلا يلتفت إلى قولهم، طمعاً في نصرتهم للدين، فإنه لا ينبغي أن أعتضد بالمضلين.

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ ﴾ أي الله عزَّ وجلَّ للكافرين، توبيخاً وتعجيزاً ﴿ نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ أنهم شفعاؤكم، والمراد بهم كلُّ ما عُبد من دونه تعالى وقيل: إبليس وذريته ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ أي نادوهم للإغاثة ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ إذْ لا إمكان، لأنهم أوثان وأحجار، لا يسمعون ولا يبصرون، وفي إيراده مع ظهوره، تهكُّمٌ بهم، وإيذانٌ بحماقتهم ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم﴾ بين الداعين والمدعوّين ﴿مَّوْبِقًا﴾ مهلكاً يشتركون فيه، وَبَق من باب وعد: هَلَك والمَوْبِقُ مثل مسجد من الوبوق وهو الهلاك كقول عمر رضي الله عنه: «لا يكن حُبُّك كَلَفاً، ولا بغضُك تَلفاً» ويجوز أن يكون المراد من الشركاء الملائكة، وعزير، وعيسى عليهم السلام، والموبقُ: البرزخ البعيد، أي جعلنا بينهم أمداً بعيداً، لأنهم في جهنم، وأولئك في الجنة.

﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ ﴾ أي رأى الكفرة الفجرة نار جهنم تتلظَّى، ووضع المظهر تصريحاً بإجرامهم بذلك ﴿ فَظَنُّوٓاْ ﴾ أي فأيقنوا، والظنُّ ههنا بمعنى اليقين ﴿ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾ واقعون فيها الساعة ﴿ وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ أي انصرافاً أو مكاناً ينصرفون إليه، لأنها أحاطت بهم من كل جانب.

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ أي كررنا وأوردنا على وجوه كثيرة من النظم ﴿ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ ﴾ لمصلحتهم ومنفعتهم ﴿ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ ليتذكروا ويتَّعظوا بكل نوع من أنواع المعاني البديعة، الداعية إلى الإيمان، التي هي في الغرابة والحسن، واستجلاب النفس كالمثل، وليتلقوه بالقبول فلم يفعلوا ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ بحسب جبلَّته ﴿ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾ أي أكثر الأشياء التي يأتي منها الجدل، جَدِل الرجلُ من باب تعب: إذا اشتدت خصومته، وجادل إذا خاصم، وهو ههنا شدة الخصومة بالباطل، والمعنى: إن جداله أكثر من جدال كل مجادل. روى الشيخان عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ طَرَقه وفاطمة ليلاً، فقال: أَلاَ تصليان؟ فقلتُ يا رسول الله: أنفُسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بَعَثنا، فانصرف رسول الله ﷺ حين قلتُ ذلك، ولم يرجع إليَّ شيئاً، ثم سمعتُه يقول وهو مُوَلٍّ يضرب فخذه بيده: ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾[1].

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ ﴾.

(١) الحديث أخرجه البخاري في التهجد ٣/ ٨ ومسلم رقم ٧٧٥ في صلاة المسافرين.

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ أي أهل مكة ﴿ أَن يُؤْمِنُوٓاْ﴾ بأن يؤمنوا بالله ﴿ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي سببه وهو الكتابُ، والرسول ﷺ ﴿ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ﴾ عمَّا فرط منهم من أنواع الذنوب، التي من جملتها مجادلتهم للحق بالباطل ﴿ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي إلا طلب سنتنا في إهلاك الأولين، وهو الاستئصال ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ أي عياناً من المقابلة وقيل: فجأة، ومعنى الآية: أنه ما منعهم من الإيمان والاستغفار إلاَّ طلبهم أن يشاهدوا العذاب معاينةً ومواجهة.

﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾.

﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ للمؤمنين بالثواب ﴿ وَمُنذِرِينَ ۚ﴾ للكفرة والعصاة بالعقاب ﴿ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي باقتراحات الآيات مكابرة وعناداً، بعد ظهور المعجزات ﴿ لِيُدْحِضُواْ بِهِ﴾ أي بالجدال الباطل ﴿ ٱلْحَقَّ﴾ أي يزيلوه عن مركزه، ويبطلوه من إدحاض القدم وهو إزلاقها، دحضت الحجة دحضاً من باب نفع بطلت كقولهم للرسل صلوات الله عليهم ﴿ما أنتم إلا بشرٌ مثلنا﴾ ﴿ولو شاء الله لأنزل ملائكة﴾ ونحوهما، وهذا يدل على أن الأنبياء عليهم السلام كانوا يجادلونهم ﴿ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا﴾ وهو ما يُستهزأ به، أي جعلوا هذه الآيات موضع استهزاء وسخرية.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾؟ وهو القرآن العظيم، والمعنى: لا

أحد أظلم منه ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي لم يتدبرها ولم يتفكرها، ونسي عمله من الكفر والمعاصي، التي من جملتها ما ذُكر، من المجادلة بالباطل، والاستهزاء بالحق ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي جعلنا على قلوبهم أغطية تحول دون فهم هذا الكتاب العزيز، والانتفاع بما فيه، كما جعلنا على آذانهم صمماً، يمنعهم أن يسمعوه سماع تفهم وانتفاع، بسوء أعمالهم، وعظم جرائمهم، والعجب أن قوله تعالى: ﴿ومن أظلم..﴾ إلى قوله: ﴿ما قدمت يداه..﴾ متمسك للقدرية الذين ينكرون القدر، وقوله: ﴿إنا جعلنا على قلوبهم أكنة﴾ إلى آخر الآية متمسك الجبرية، وقلَّما نجد في القرآن آية لأحدهما، إلاَّ ومعها آية للفريق الآخر، وما ذاك إلا امتحان من الله عزَّ وجل، ألقاه على عباده ليتميز العلماء الراسخون، من الخابطين في الآراء خبط عشواء ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ فلن يكون منهم اهتداء إلى الهدى البتَّة لغاية ضلالهم، وهذا في أقوام عَلِمَ الله منهم أنهم لا يؤمنون، و﴿إِذًا﴾ جزاء الشرط، وجوابٌ عن سؤال الرسول ﷺ كأنه قال: مالي لا أدعوهم؟ فقيل: إن تدعهم الخ فإن حرصه ﷺ على إيمانهم يدلُّ عليه.

﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ﴾ البليغ المغفرة ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ الموصوف بالرحمة وهي الإنعام على الخلق، وفي الآية التنبيه على كثرة الذنوب ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم﴾ لو يريد مؤاخذتهم ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ من المعاصي التي من جملتها ما حكى عنهم من مجادلتهم بالباطل، والاستهزاء بالحق، وعدم المبالاة بما اجترحوا من الموبقات ﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ لاستيجاب أعمالهم لذلك، ولكنه سبحانه يمهلهم ويؤخر عنهم العذاب رحمة بهم ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ أي أجل لهلاكهم وهو يوم القيامة ﴿لَّن يَجِدُوا﴾ البتة ﴿مِن دُونِهِ

﴿مَوْئِلًا﴾ منجا أو ملجأ، يقال: وَأَلَ: إذا نجا، ووأل إليه أي التجأ إليه، والموئلُ: المرجعُ.

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ أي قرى عاد، وثمود، وأضرابهما ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ أي وقت ظلمهم ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ أي عيَّنا لهلاكهم وقتاً معيَّناً، لا محيد لهم عن ذلك، فلا يغترُّوا بتأخير العذاب عنهم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ أي اذكر وقت قوله عليه السلام ﴿لِفَتَىٰهُ﴾ وهو يوشع عليه السلام، سُمّي فتاه إذ كان يخدمه ويتعلمُ منه، ويسمى التلميذ فتى، وأكثر العلماء على أن المذكور في هذه الآية «موسى بن عمران» صاحب التوراة، وعن كعب الأحبار أنه «موسى بن ميشا» من أولاد يوسف، والأول أصح، لأنه لم يذكر تعالى في كتابه العزيز موسى إلاَّ أراد به صاحب التوراة، أخرج الشيخان عن سعيد بن جُبير قال: قلتُ لابن عباس رضي الله عنه: إن نوفاً البكالي، يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو «موسى بن عمران» فقال ابن عباس رضي الله عنه كَذَب عدوُّ الله، حدثنا أبيُّ بن كعب، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن موسى عليه السلام، قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل أيُّ الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه، إذ لم يردَّ العلم إليه تعالى، فأوحى الله سبحانه وتعالى إليه، إنَّ لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى يا رب: فكيف لي به؟ قال: فخذ معك حوتاً فاجعله في مكتل، فحيثما فقدتَ الحوت فهو ثَمَّةَ، فأخذ حوتاً فجعله في مكتل، ثم انطلق وانطلق معه فتاه

يوشع بن نون، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما، فاضطرب الحوت في المكتل، فخرج منه فسقط في البحر، فلما استيقظ نسي صاحبُه أن يخبره بالحوت وانطلقا. .»[1] الحديث ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ أي لا أزال أسير ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ وهو المكان الذي وعد فيه موسى لقاء الخضر عليهما السلام، قيل هو ملتقى بحر فارس والروم، مما يلي المشرق، وقيل: طنجة ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ أو أسير زماناً طويلاً.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ أي مجمع البحرين ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ الذي جُعل فقدانه أَمارة وجدانِ المطلوب، أي نسيا تفقد أمره، روي أنهما لمَّا بلغا مجمع البحرين، وفيه الصخرة ناما، فاستيقظ يوشع عليه السلام، وتوضأ من تلك العين، فنضح الماء على الحوت فعاش، فوقع في الماء ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ مسلكاً كالسرب، وهو النَّفَق.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ مجمع البحرين وسارا الليلة والغد إلى الظهر، وأُلقي على موسى عليه السلام الجوعُ فعند ذلك ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ أي ما نتغذَّى به، وهو الحوت كما ينبىء عنه الجواب ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا﴾ إشارة إلى ما سارا بعد مجاوزة الموعد ﴿نَصَبًا﴾ تعباً وإعياءً.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٨/٤٠٩ ومسلم رقم ٢٣٨٠ والترمذي رقم ٣١٤٨.

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ فتاه ﴿ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ ﴾ أي التجأنا وأقمنا عندها وذكر الإيواء إلى الصخرة، مع أن المذكور فيما سبق بلوغ مجمع البحرين، لزيادة تعيين محل الحادثة، ولتمهيد العذر فإن الإيواء إليها والنوم عندها، مما يؤدي إلى النسيان عادةً، ومراده بالاستفهام تعجب موسى عليه السلام مما اعتراه هناك من النسيان، مع كون ما شاهده من العظائم التي لا تكاد تُنسىٰ ﴿ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ ﴾ وفيه تأكيد للتعجب أي نسيت أن أذكر لك أمره، وما شاهدته منه من الأمور العجيبة ﴿ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ بوسوسته الشاغلة عن ذلك ﴿ أَنْ أَذْكُرَهُۚ ﴾ أي الشيطان أنساني أن أذكره لك ﴿ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ كأنه قيل: حيي واضطرب ووقع في البحر واتخذ سبيله فيه سبيلاً عجباً، وهو كون مسلكه كالطاقة، وأيُّ شيء أعجب من حوت يؤكل منه، ثم صار حياً؟!.

﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الذي ذكرتَ من أمر الحوت ﴿ مَا كُنَّا نَبْغِۚ ﴾ أي نطلبه لكونه علامة على غرضنا ومطلوبنا ﴿ فَٱرْتَدَّا ﴾ أي رجعا ﴿ عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا ﴾ أي طريقهما الذي جاءا منه ﴿ قَصَصًا ﴾ أي يتبعان آثارهما حتى أتيا الصخرة.

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ .

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا ﴾ التنكير للتفخيم ﴿ مِّنْ عِبَادِنَآ ﴾ الإضافة للتشريف،

والجمهورُ على أنه الخضر، والخضر لقب له، روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما سُمِّي الخضر، لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تهتزُّ تحته خضراء»[1] ومعناه أنه جلس على قطعة نبات يابسة، فاخضرَّت تحته كرامة له ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ أي وهبناه نعمة عظيمة، وفضلاً كبيراً رفعنا به قدره، وعلمناه علماً خاصاً من غير واسطة، والعلم الخاص به، هو علم الغيوب.

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾.

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ﴾ استئناف كأنه قيل: فما جرى بينهما؟ فقيل: قال موسى ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾؟ استئذانٌ منه في اتباعه له، على وجه التعلم ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾؟ أي علماً ذا رشد، ولا ينافي نبوته وكونه صاحب شريعة، أن يتعلم من إنسان آخر، كما لا يبعد أن العالم الكامل، في أكثر العلوم، يجهل بعض الأشياء، فيحتاج في تعلمها إلى من دونه، وهذا أمر معلوم، وتعلمه منه لا ينقص قدره وشرفه، وفيه دليل على أنه لا ينبغي لأحد أن يترك طلب العلم، وإن كان قد بلغ نهايته، وأن يتراجع لمن هو أعلم منه.

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ أي الخضر ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ نفى عنه استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد، وكأنه مما لا يصحُّ، وعلَّله بقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾؟ إيذاناً بأنه يتولى أموراً خفية المدار، والرجل الصالح ـ لا سيما صاحب الشريعة ـ لا يتمالك أن يشمئزَّ

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب التفسير رقم ٣١٥١ وقال: حسن صحيح.

عند مشاهدتها، أي وكيف تصبر على أمرٍ ظاهره منكر، يخالف الشرع، وأنت لا تعلم باطنه؟.

﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام ﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا ﴾ معك غير منكر عليك ما تفعله ﴿ وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾ أي ستجدني صابراً وغير عاصٍ لأمرك.

﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى ﴾ إذن له في الاتباع بعد الموافقة على الشرط ﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ ﴾ تشاهده من أفعالي، أي لا تُفاتحني بالسؤال عن حكمته، فضلاً عن المناقشة والاعتراض ﴿ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ أي حتى أبتدىء أنا ببيانه لك، وفيه إيذانٌ بأن كل ما يصدر عنه فله حكمة، وغاية حميدة، وفي هذا إرشادٌ لأدب المتعلِّم مع العالم.

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ ﴾.

﴿ فَٱنطَلَقَا ﴾ أي موسى والخضر عليهما السلام على الساحل، يطلبان السفينة، وأما يوشع فقد صرفه موسى إلى بني إسرائيل، قيل: إنهما مرَّا بسفينة، فكلَّما أهلها، فعرفوا الخضر، فحملوهما بغير نول أي بغير أجرة ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ ﴾ أي حتى إذا ركبا في السفينة، وأصبحت في لجة البحر، عمد الخضر إلى بعض ألواح السفينة، فقلع من ألواحها لوحين، فجعل موسى يسدُّ الخرق بثيابه ﴿ قَالَ ﴾ موسى له ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ ﴾ أي فعلتَ ﴿ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾ أي عظيماً هائلاً.

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ الخضر عليه السلام ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ تذكير لما قاله له، متضمنٌ للإنكار، على عدم الوفاء بوعده.

﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴾ أي بنسياني أو بالذي نسيته، وهو وصيته، أراد أنه نسي وصيته، ولا مؤاخذة على الناسي، قال ﷺ «كانت الأولى من موسى نسياناً» ﴿ وَلَا تُرْهِقْنِي ﴾ أي ولا تحملني مشقة ولا تكلفني ﴿ مِنْ أَمْرِي ﴾ وهو اتباعه إياه ﴿ عُسْرًا ﴾ أي لا تعسِّرْ علي متابعتك، ويسِّرها عليَّ بالإغضاء، وترك اللوم والمؤاخذة.

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ﴾ .

﴿ فَانطَلَقَا ﴾ أي فقبل عذره، فخرجا من السفينة فانطلقا نحو البَرِّ ﴿ حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ ﴾ أي فقتله فور لقائه، أمسكه الخضر واقتلع رأسه بيده، ثم رماه في الأرض جثة هامدة، وقيل: أضجعه فذبحه بالسكين[1]، والغلام هو الصبي الذي لم يبلغ سن الرشد، والفاء للدلالة على أنه لما لقيه قتله من غير تردُّد، ولذلك ﴿ قَالَ ﴾ أي موسى عليه السلام ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾ أي طاهرة من الذنوب، لأنها لم تبلغ الحلم، أو أنه لم يره قد أذنب ذنباً يقتضي قتله ﴿ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ أي بغير قتلِ نفسٍ محرَّمة، ﴿ لَّقَدْ جِئْتَ

(١) القول الأول أصح، لما ورد في الصحيحين من قوله ﷺ «فبينما هما يمشيان على الساحل، إذْ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر برأسه فاقتلعه بيده فقتله» أخرجه الشيخان.

﴿شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ أي منكراً فظيعاً لا يمكن السكوت عنه، رُوي عن أبي بنِ كعب رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الغلام الذي قتله الخَضِرُ، طُبع كافراً، ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفرا»[1].

﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾.

﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ إنما زيد ﴿لَّكَ﴾ لزيادة العتاب على رفض الوصية، وقلة الصبر، حين تكرّر منه الاشمئزاز، وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قيل له: كيف جاز قتله، وقد ورد النهي عن قتل الولدان؟ قال لسائله: إنْ علمتَ من حال الغلام ما علمه صاحب موسى فلك أن تقتله.

﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ أي بعد هذه المرة ﴿فَلَا تُصَٰحِبْنِي ۖ﴾ أي لا تجعلني صاحبك بعدها ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ حيث خالفتك ثلاث مرات، وهذا كلامُ نادم شديد الندامة، قاله مع شدة حرصه على المصاحبة، عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رحمةُ اللهِ علينا وعلى موسى، لولا أنه عجل لرأى العجب»[2].

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣١٥٠ وقال: حديث حسن صحيح غريب.

(٢) طرف من حديث أخرجه الشيخان عن أُبيّ بن كعب، وهو حديث طويل وشهير، وانظر فتح الباري ٨/ ٤١١.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ﴾ هي أنطاكية، وقيل: برقة، وقيل: هي بلدة في الأندلس ﴿ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ روي أنهما طافا في القرية، فاستطعماهم فلم يطعموهما، واستضافاهم، فأبوا أن يضيِّفوهما ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ أي يقارب ويداني أن يسقط، فاستعيرت الإرادة المشارفة، للدلالة على المبالغة في ذلك، والانقضاضُ: الإسراعُ في السقوط، ومنه انقضاضُ الطير والكوكب ﴿فَأَقَامَهُۥۖ﴾ مَسَحه بيده فقام، وقيل: نقضه وبناه، وفي حديث أُبيٍّ: فقال الخضرُ بيده هكذا فأقامه ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام ﴿لَوۡ شِئۡتَ لَتَخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا﴾ تحريضاً على أخذ الأجرة، أو تعريضاً بأنه فضول، كأنه لمَّا رأى الحرمان، ومساس الحاجة، واشتغاله بما لا يعنيه، لم يتمالك الصبر، و«اتَّخذ» افتعل من تَخِذَ بمعنى أخذ، كاتَّبع من تَبع، وليس من أخذ.

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ٧٨﴾.

﴿قَالَ﴾ الخضر عليه السلام ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ﴾ أي هذا الوقت وقت الفراق، حسبما هو الموعود ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ أي سأخبرك وأُعلمك، والسينُ للتأكيد لعدم تراخي التنبئة ﴿بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾ والمراد من التأويل ههنا المآل والعاقبة، إذ هو المنبأ به، أي سأحدثك عن حكمة هذه الأمور الثلاثة، التي أنكرتها عليَّ، ولم تستطع الصبر لأشرحها لك.

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ٧٩﴾.

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ﴾ التي خرقتها ﴿فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ﴾ لضعفاء لا يقدرون على مدافعة الظلمة ﴿يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ أي يشتغلون في البحر بقصد التكسب من هذه السفينة ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾ أي أجعلها ذات عيب ﴿وَكَانَ

﴿وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ أي أمامهم، وكان رجوعهم عليه لا محالة ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صالحة ﴿غَصْبًا﴾ من أصحابها.

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ﴾ الذي قتلته ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ ولم يصرح بكفره، إشعاراً بعدم الحاجة إلى الذكر، لظهوره ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا﴾ أي خفنا أن يغشي الوالدين ﴿طُغْيَٰنًا﴾ عليهما ﴿وَكُفْرًا﴾ بعقوقه وسوء صنيعه، ويُلحق بهما شراً وبلاءً، أو يعذبهما بدائه، ويضلهما بضلاله، فيرتدا بسببه، وإنما خشي الخضر منه ذلك، لأنه تعالى أطلعه على سرِّ أمره.

﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾.

﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ الإبدال رفعُ الشيء ووضع آخر مكانه، بأن يرزقهما ﴿خَيْرًا مِّنْهُ﴾ أي أن يرزقهما الله ولداً صالحاً خيراً من ذلك الولد الكافر، وفي الآية دلالةٌ على إرادة وصول الخير إليهما ﴿زَكَوٰةً﴾ أي طهارةً من الكفر والذنوب والأخلاق الرديئة ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ رحمةً وعطفاً على والديه قيل: أبدلهما الله جارية فزوَّجها فولدت له نبياً، فهدى الله على يديه أمة من الأمم، وقيل: أبدلهما الله بغلام مسلم، ومبنى هذه المسائل، على أنه متى تعارض ضرران، تُحمَّل أهونُهما لدفع أعظمهما، الغلام الذي قتل فرح به أبواه حين وُلد، وحزنا عليه حين قُتل، ولو بقي لكان فيه هلاكهما، فليرض العبد بقضاء الله تعالى.

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾.

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ ﴾ المعهود الذي بنيته ﴿ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ هي القرية المذكورة، أي كان الجدار الذي بنيته قد خبىء تحته كنز ثمين ليتيمين في هذه البلدة ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾ أي كان تحت ذلك الجدار كنز مدفون من فضة وذهب، روى أبو الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: «كان الكنز ذهباً وفضة»[1] وما ورد من الذمِّ على كنزهما، في قوله تعالى: ﴿وَالذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّة﴾ الآية لمن لا يؤدي زكاتهما، وسائر حقوقهما ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ أي وكان والدهما صالحاً تقياً، فحفظ لهما الكنز لصلاح الوالد، وفي الآية تنبيهٌ على أن سعيه في ذلك كان لصلاحهما، وهي تدل على أن صلاح الآباء، يفيد العناية بأحوال الأبناء، رُوي عن الحسين رضي الله عنه أنه قال لبعض الخوارج في كلام جرى بينهما: بمَ حفظ اللهُ تعالى مالَ الغلامين؟ قالوا بصلاح أبيهما، قال: فأبي وجدِّي ﷺ خيرٌ منه ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا ﴾ أي فأراد الله بهذا الصنيع، أن يكبروا ويشتد عودهما، ويستخرجا كنزهما من تحت الجدار وفي إضافة الرب إلى ضمير موسى عليه السلام ﴿ربك﴾ تنبيه له على تحتم الانقياد، والاستسلام لإرادته سبحانه، ووجوب الاحتراز عن المناقشة، فيما وقع من الأمور المذكورة ﴿ وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ﴾ من تحت الجدار، ولولا أني أقمته لانقضَّ، وخرج الكنز من تحته، وضاع ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ ﴾ أي فعلت ما فعلت من الأمور التي شاهدتها، رحمة من ربك ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ﴾ أي وما فعلتُ ما فعلت من خرق السفينة، وقتل الغلام وبناء الجدار، عن رأيي ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى العواقب المنظومة في سلك البيان ﴿ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع ﴾ أي ما لم تستطع، فحذفت التاء للتخفيف ﴿ عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ أي ما لم تصبر عليه وعارضت فيها قبل أن أخبرك عنها، وفوائد هذه القصة، أن لا يعجب المرء بعلمه، ولا يبادر إلى إنكار ما لم يستحسنه، فلعل فيه سراً لا يعرفه،

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣١٥٢ وقال: هذا حديث غريب.

وأن يداوم على التعليم، ويراعي الأدب في المقال، وقد زلت أقدام قوم من الضلال، في تفضيل الولي على النبي، وهو كفر جلي، حيث قالوا أُمرَ موسى بالتعلم من الخضر، وهو ولي، والجوابُ أن هذا ابتلاء في حق موسى عليه السلام، ومن المحال أن يكون الولي ولياً بإيمانه بالنبي، ثم يكون النبيُّ دون الولي، ولا غضاضة في طلب موسى زيادة العلم من ذلك الولي الصالح.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ ﴾ هم اليهود سألوا رسول الله عن قصة ذي القرنين، وصيغة الاستقبال للدلالة على استمرارهم على ذلك، إلى ورود الجواب، وهو ملك مسلم صالح أعطي المُلك والحكمة، وأَن ملكه بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وهو الذي افتخر به تُبَّع اليماني حيث قال:

قد كانَ ذُو القرنينِ جَدّي مسلماً ... مَلِكَاً علا في الأرض غير مفنَّدِ
بلغَ المشَارِقَ والمغاربَ يَبْتغي ... أسبابَ أمْرٍ منْ حَكيمٍ مُرْشِدِ

قال ابن كثير: والصحيح أنه ما كان نبياً ولا مَلَكاً، وإنما كان مَلِكاً عادلاً، داعياً إلى الله تعالى، سائراً في الخلق بالعدل، وكان الخضر على مقدمة جيشه بمنزلة المستشار، واختلف في وجه التسمية، فقيل: لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها، وقيل كان في رأسه أو في تاجه ما يشبه القرنين، وأما ذو القرنين الثاني، فإنه الإسكندر بن إقليديس المقدوني باني الإسكندرية، كان متأخراً عن الأول بدهر طويل، أكثر من ألفي سنة، وكان الأول عبداً صالحاً، وملِكاً عادلاً، والثاني كان كافراً فاسقاً ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم ﴾ سأذكر لكم ﴿ مِّنْهُ ﴾ من ذي القرنين ﴿ ذِكْرًا ﴾ أي نبأً مذكوراً وحيث كان ذلك بطريق الوحي المتلو حكاية عن جهة الله تعالى قيل سأتلوه، والسين للتأكيد لا للاستقبال كما قيل.

﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ التمكين ههنا الإقدار وتمهيد الأسباب، والمعنى: إنا جعلنا له مكنة وقدرة على التصرف في الأرض، من حيث التدبير والأسباب، وتسهيل السير في الأرض ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ من مهمات ملكه، ومقاصده المتعلقة بسلطانه ﴿ سَبَبًا ﴾ أي طريقاً يوصله إليه.

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ ﴾ .

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أي سلك طريقاً يوصله إلى مقصوده، ومشى باتجاه الغرب.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ ﴾ أي منتهى الأرض من جهة المغرب، بحيث لا يتمكن أحد عن مجاوزته، ووقف على حافة البحر المحيط الغربي، الذي يقال له أوقيانوس ـ ﴿ وَجَدَهَا ﴾ الشمس ﴿ تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ أي ذات حمأة، وهي الطين الأسود أي ذات حمأة، ولعله بلغ ساحل المحيط، فرآها كذلك، إذ لم يكن في مطمح بصره غير الماء، ولذلك قال تعالى ﴿وجدها تغرب﴾ ولم يقل: «كانت تغرب» كما أن راكب البحر، يرى الشمس تغيب في البحر ﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا ﴾ أي عند تلك العين ﴿ قَوْمًا ﴾ قيل كان لباسهم جلود الوحوش، وطعامهم ما لفظه البحر، وكانوا كفاراً فخيَّره الله عزَّ وجلَّ بين التعذيب، والتعليم ﴿ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ ﴾ بالقتل ﴿ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ أي أمراً ذا حسن، وذلك بالدعوة إلى الإسلام، والإرشاد إلى الشرائع.

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ ﴾ .

﴿قَالَ﴾ أي ذو القرنين لمن عنده، بعدما تلقى أمره تعالى ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ نفسه ولم يقبل دعوتي، وأصرَّ على ما كان عليه من الظلم العظيم وهو الشرك ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ - بالقتل - ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ في الآخرة ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ﴾ - فيها - ﴿عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي عذاباً منكراً، لم يُعهد مثله وهو عذاب النار، وفيه دلالة على أن الخطاب لم يكن بطريق الوحي إليه، وإنما كان بالإلهام.

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾.

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ بموجب دعوتي ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ حسبما يقتضيه الإيمان ﴿فَلَهُۥ﴾ في الدارين ﴿جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي فله مثوبة الحسنى ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا﴾ أي مما تأمر به ﴿يُسْرًا﴾ أي سهلاً، متيسراً غير شاق، وتقديره ذا يسر.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي طريقاً راجعاً من مغرب الشمس إلى مشرقها.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ يعني الموضع الذي تطلع عليه الشمس أولاً من معمورة الأرض، قيل بلغه في اثنتي عشرة سنة ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ هم من الزنج، ليس لهم ستر من اللباس والبناء، لأن أرضهم لا تمسك الأبنية وبها أسراب، فإذا طلعت الشمس دخلوا الأسراب، فإذا ارتفع خرجوا إلى معاشهم، وهذا حال كل من يسكن البلاد القريبة من خط الاستواء، وقيل: إنهم كانوا كسائر الحيوانات عراة أبداً.

﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ ﴾ .

﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي أمر ذي القرنين كما وصفناه لك، في رفعة المحل، وبسطة الملك ﴿ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ ﴾ من الأسباب والعَدَد والعُدَد ﴿ خُبْرًا ﴾ أي علماً، يعني أن ذلك من الكثرة، بحيث لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير.

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أي طريقاً ثالثاً، معترضاً بين المشرق والمغرب، آخذاً من الجنوب إلى الشمال.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ ﴾ .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ ﴾ بين الجبلين المبني بينهما سدُّه، وهما جبلان في آخر الشمال، من ورائهما يأجوج ومأجوج، ﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا ﴾ من ورائهما ﴿ قَوْمًا ﴾ أمة من الناس ﴿ لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ أي لا يكادون يفهمونه إلا بجهد ومشقة، لأن لغتهم غريبة مجهولة.

﴿ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾ .

﴿ قَالُوا۟ ﴾ بواسطة مترجمهم ممن هو مجاورهم ويفهم كلامهم ﴿ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ﴾ هما اسمان أعجميان بدليل منع الصرف، وقيل: عربيان من أجيج النار، وهو ضوؤها وشررها، شبهوا به لكثرتهم وشدتهم، وهم من أولاد يافث، والترك منهم ﴿ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي في أرضنا بالقتل، والتخريب، وإتلاف الزروع، كانوا يخرجون أيام الربيع، فلا يتركون أخضر إلا أكلوه، ولا يابساً إلا احتملوه ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا ﴾ أي

جُعلاً من أموالنا ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا﴾؟ يحجزون خروجهم علينا فلا يصلون إلينا؟.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ٩٥﴾.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي﴾ أي جعلني فيه مكيناً قادراً، من الملك والمال ﴿خَيۡرٞ﴾ أي مما تريدون أن تبذلوه إليَّ من الخرج، فلا حاجة بي إليه ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي فَعَلَة وصُنَّاع يحسنون البناء والعمل، وبآلات لا بد منها في البناء للتفريغ ﴿أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا﴾ أي حاجزاً حصيناً وهو أكبر من السد وأوثق، وهذا فوق ما يرجونه.

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ٩٦﴾.

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ﴾ جمع زُبْرة كغُرَف جمع غُرفة، وهي القطعة الكبيرة من الحديد، وتخصيص الأمر بالإيتاء بقطع الحديد دون سائر الآلات، من الصخور والحطب ونحوهما، لما أن الحاجة إليها أمسُّ، إذ هي الركن في السد، ثم حَفَر الأساس حتى بلغ الماء، وجعل الأساس من الصخر والنحاس المذاب، والبنيان من الحديد حتى سد ما بين الجبلين ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾ أي بين جانبي الجبلين، يعني آتوه إياها، فأخذ يبني شيئاً فشيئاً، حتى إذا جعل ما بين ناحيتي الجبلين من البنيان مساوياً لهما في السمك ﴿قَالَ ٱنفُخُواْۖ﴾ أي بالكيران في الحديد المبني ففعلوا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ﴾ أي المنفوخ فيه ﴿نَارٗا﴾ أي كالنار في الحرارة والهيئة ﴿قَالَ﴾ للذين يتولون أمر النحاس من الإذابة ونحوها ﴿ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾ ـ أي نحاساً مذاباً حتى يلتصق ويتماسك مع الحديد.

﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُواْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ٩٧﴾.

﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوا۟﴾ بحذف التاء تخفيفاً، أي فعلوا ما أُمروا به فصار جبلاً صَلْداً، فجاء يأجوج ومأجوج فقصدوا أن يعلوه وينقبوه فلم يستطيعوا ولم يقدروا ﴿أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي يعلوه لارتفاعه وملاسته ﴿وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾ لثخنه وصلابته، وهذه خارقة عظيمة، لأن تلك الزبر الكثيرة بالنفخ فيها تكون كالنار، وإفراغ القطر عليها أي النحاس المذاب شبه مستحيل، فكان ما كان، والله على كل شيء قدير. وقيل: بناه من الصخور مرتباً بعضها ببعض، بكلابيب من حديد، ونحاس مذاب.

﴿قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾.

﴿قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ﴾ أي قال ذو القرنين لمن عنده من تلك الديار ﴿هَـٰذَا﴾ إشارة إلى السد، وتمكينه من بنائه ﴿رَحْمَةٌ﴾ أي أثر رحمة عظيمة ﴿مِّن رَّبِّى ۖ﴾ على كافة العباد، لا سيما على مجاوريه، وفيه إيذان بأنه ليس من قبيل الآثار الحاصلة بمباشرة الخلق عادة، بل هو إحسان إلهي محض، وإن ظهر بمباشرة العباد ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى﴾ وهو يوم القيامة، لا خروج يأجوج ومأجوج كما قيل ﴿جَعَلَهُۥ﴾ أي السد مع متانته ﴿دَكَّآءَ ۖ﴾ مدكوكاً مبسوطاً مسوّىً بالأرض، والدَكُّ بالفتح والتشديد: الضربُ والكسر وفيه بيان لعظم قدرته، بعد بيان سعة رحمته ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى﴾ أي كل ما وعد به ﴿حَقًّا﴾ أي ثابتاً لا محالة، واقعاً البتة.

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَـٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾.

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ﴾ كلام مسوق من جنابه سبحانه معطوف على قوله جعله دكاً، ومحقِّقٌ لمضمونه أي جعلنا بعض الخلائق ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم إذْ جاء الوعد ﴿يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ﴾ أي يضطربون اضطراب أمواج البحر، ويختلط إنسهم وجنهم، حيارى من شدة الهول، وذلك قبل النفخة الأولى، أو تركنا بعض يأجوج ومأجوج يموج في بعض آخر، مزدحمين في البلاد

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ هي النفخة الثانية ﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ﴾ أي الخلائق ﴿جَمْعًا﴾ أي جمعاً عجيباً، للحساب، والجزاء.

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ﴾ أي أظهرناها ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذ جمعنا الخلائق كافة ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ حيث جعلناها بحيث يرونها ويسمعون لها تغيظاً وزفيراً ﴿عَرْضًا﴾ فظيعاً هائلاً، وتخصيص العرض بهم مع أنها بمرأى من أهل الجمع قاطبة، لأن ذلك لأجلهم خاصة، فهذا يجري مجرى العقاب، لما يتداخلهم من الغمّ العظيم.

﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ﴾ وهم في الدنيا ﴿فِي غِطَآءٍ﴾ كثيف، وغشاوة غليظة ﴿عَن ذِكْرِى﴾ عن آياتي وعن القرآن الكريم ﴿وَكَانُوا۟﴾ مع ذلك ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لفرط تصامهم عن الحق، وكمال عداوتهم للرسول ﷺ ﴿سَمْعًا﴾ أي استماعاً لذكري، وكانوا صُماً عنه، وهذا تمثيل لإعراضهم عن الأدلة السمعية، كما أن الأول تصوير لتعاميهم عن الآيات المشاهدة بالأبصار.

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ ـ أي كفروا بي، والحسبانُ بمعنى الظن، والهمزة للإنكار والتوبيخ ـ ﴿أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى﴾ من الملائكة، وعيسى، وعزير عليهم السلام، وهم تحت سلطاني وملكوتي، وقيل: هي الأصنام سماهم عباداً، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ

أَمْثَالُكُمْ﴾[1] ﴿مِن دُونِيٓ أَوْلِيَآءَ﴾ معبودين، فظنوا أنه ينفعهم، بل هم أعداء لهم يتبرؤون منهم ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ﴾ أي هيَّأناها ﴿لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ أي شيئاً يتمتعون به عند ورودهم، وهو ما يقام للنزيل، أي للضيف، مما حضر من الطعام وغيره، وفيه تهكم بهم، وتخطئة لهم في حسبانهم.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ﴾ الخطاب الثاني للكفرة على وجه التوبيخ ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾؟ وهذا بيان لحال الكفرة باعتبار ما صدر عنهم من الأعمال الحسنة في نفسها، وفي حسبانهم حيث كانوا معجبين بها واثقين بنيل ثوابها.

﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾ أي ضاع وبطل بالكلية ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلق بالسعي لا بالضلال، لأن بطلان سعيهم غير مختص بالدنيا ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ﴾ أي وهم يظنون والمراد بهم أهل الكتاب قاله ابن عباس، وعن علي هم الخوارج، واللفظ عام يعمهم وغيرهم ﴿أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ أي بطل سعيهم المذكور، والحال أنهم يحسبون أنهم يحسنون في ذلك.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ كلام مستأنف من جنابه تعالى لتبيين سبب خسرانهم أي أولئك المنعوتون بما ذكر من ضلال السعي مع الحسبان المذكور ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ ـ بدلائله الداعية إلى التوحيد والنبوة، عقلاً ونقلاً

(١) سورة الأعراف، آية: ١٩٤.

والتعرض لعنوان الربوبية لزيادة تقبيح حالهم في الكفر المذكور ﴿وَلِقَآئِهِۦ﴾ بالبعث وأمور الآخرة على ما هي عليه ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ لذلك حبوطاً كلياً ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ﴾ لأولئك الموصوفين ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ - أي لا نجعل لهم مقداراً واعتباراً، لأن مداره الأعمال الصالحة، وقد حبطت بالكفر. عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة، قال اقرؤوا إن شئتم ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا﴾[1]».

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ بيان لمآل كفرهم وسائر معاصيهم أي الأمر ذلك، وقوله عزَّ وجلَّ ﴿جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟﴾ تصريح بأن ما ذكر جزاء لكفرهم، المتضمن لسائر القبائح - ﴿وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾ أي مهزوءاً بهم، فإنهم لم يكتفوا بمجرد الكفر، بل ارتكبوا مثل تلك العظيمة أيضاً وهي السخرية والاستهزاء بآيات الله، ورسل الله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي آمنوا بآيات ربهم ولقائه ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من الأعمال الخيرية والطاعات ﴿كَانَتْ لَهُمْ﴾ في حكم الله ووعده ﴿جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ﴾ هو البستان، وقال المبرد: الشجر الملتف، والأغلب أن يكون من العنب ﴿نُزُلًا﴾ أي ضيافة وكرامة لهم.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري رقم ٤٧٢٩ ومسلم رقم ٢٧٨٥.

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ أي لا يطلبون التحول عنها، إذ لا يتصور أن يكون شيء أعز عندهم منها، حتى تنازعهم إليه أنفسهم، وهذا الوصف يدل على غاية الكمال، لأن الإنسان في الدنيا إذا وصل إلى أي درجةٍ في السعادة، فهو طامع إلى ما هو أعلى منها.

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾.

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا ﴾ وهو ما تُمد به الدواة من الحِبر، الذي يكتب به ﴿ لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى ﴾ لتحرير كلمات علمه وحكمته ﴿ لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ ﴾ لتناهيه لأن كل جسم متناهٍ ﴿ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى ﴾ والمعنى: من غير أن تنفد كلمات ربي، لعدم تناهيها، فلا دلالة للكلام على نفادها بعد نفاد البحر، وفي إضافة الكلمات إلى الرب من تفخيم المضاف، وتشريف المضاف إليه ما لا يخفى ﴿ وَلَوْ جِئْنَا ﴾ كلام من جهته تعالى جيء به لتحقيق مضمونه، مع زيادة المبالغة ﴿ بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ عَوناً وزيادة، أي لو كانت بحورٌ تمدُّه ويكتب بها، لما نفدت كلمات الله. وسبب نزولها أن اليهود لعنهم الله، قالوا للمسلمين: في كتابكم: ﴿وَمَنْ يُؤتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرَاً كَثِيرَاً﴾ ثم تقرؤون ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً﴾ فنزلت، يعني أن ذلك خير كثير، ولكنه قطرات من بحر كَلمَات الله جلَّ وعلا.

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾.

﴿ قُلْ ﴾ لهم بعد ما بيَّنتَ شأن كلمته تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ لا أدعي الإحاطة بكلماته سبحانه ﴿ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ من تلك الكلمات إنما تميزتُ عنكم بذلك ﴿ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ لا شريك له في الخلق و لا في سائر

أحكام الألوهية ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ حسن لقاء ربه، وقيل رؤيته تعالى كما هو حقيقة اللفظ، وإدخال الماضي على المستقبل، للدلالة على أن اللائق بحال المؤمن، الاستدامة على رجاء اللقاء، أي فمن استمر على رجاء كرامته تعالى: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ في نفسه خالصاً لا يريد إلا وجهه ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ إشراكاً جلياً ولا إشراكاً خفياً كما يفعله أهل الرياء.

عن جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من سَمَّع سمَّع الله به، ومن يرائي يرائي الله به»[1] قوله: «من سمَّع سمَّع الله به» أي من عمل عملاً ليشتهر بذلك شهَّر الله بذلك يوم القيامة.

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى يقول أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري تركتُه وشركه»[2] وقد ورد في فضل هذه السورة عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف، عُصِمَ من فتنة الدجَّال[3] » وفي رواية: من آخرها.

نسأل الله أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، أن يخصنا بالمغفرة والفضل، في يوم الدين، إنه ذو الفضل العظيم.

«تم بعونه تعالىٰ تفسير سورة الكهف».

* * *

(١) أخرجه البخاري ١١/ ٢٨٨ في الرقاق، ومسلم رقم ٢٩٨٧ في الزهد.
(٢) أخرجه مسلم في الزهد رقم ٢٩٨٥ باب من أشرك في عمله.
(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين رقم ٨٠٩ والترمذي في ثواب القرآن رقم ٢٨٨٨.